ملخص:
يعرض هذا البحث بالدرس والتحليل "معايير الفحولة " في مدوَّنة الأصمعي الأقدم ، وما تصطحبه من مفاهيم ودلالات تداولها النقد العربي في كتاباته ، ودارت على الألسنة (شفاهة ورواية وتنظيرًا) ، وآلية للحكم القيمي الدارج في الاستعمال(التداولي) ، في إطار النسق الضمني الحواري ، أو السياقات الفكرية والثقافية والمجتمعية التي اشتقت مسمى الفحولة ، وأسست لمعاييره ، وتبنته ، وكرست له في العقل النقدي والوعي الجمعي . ثم صارت " الفحولة" سلطة ثقافية ما لبثت أن اختلطت معالمها ، وتعددت مسمياتها ، وتطورت شروطها وأشراطها مع تطور الحراك الإبداعي والنقدي في القرنين الثالث والرابع للهجرة بعدما حلت محلها المعايير السبعة ممثلة في عمود الشعر أو النموذج الأمثل لنظام القريض .

Abstract
The Critical Debate on the Criteria of *fuhoola*/Poetic Prowess in the Al-Asma'i's Corpus. (A Descriptive Analytical Study)

This research explores and analyses the "criteria of *fuhoola*/poetic prowess " in Al-Asma'iearlier works, and the accompanying concepts and significances of its circulation in written Arabic criticisms, and in the oral discussion. These criteria were employed as a common standard of judgment in the paradigmatic use within the social and cultural contexts that produced the term "*fuhoola*/poetic prowess" and established its criteria in the critical mind and the collective consciousness. Soon the "*fuhoola*/poetic prowess" had turned into a blurry cultural authority with various nomenclatures. Its conditions had developed with the creative and critical mobility in the third and fourth centuries H. when it was replaced by the seven criteria embodied in the art of versification which was considered the perfect model of poetic versification

التَّداول النقديُّ لمعايير الفحولة في مدوَّنة الأصمعي
(دراسة وصفية تحليلية)

مقدمـــة:

يتعرض هذا البحث بالدرس والتحليل لـــ «معايير الفحولة» في مدونة الأصـــمعي (*) الأقدم، وما تصطحبُهُ مـــن مفـــاهيم ودلالات تداولها النقد العربيُّ فـــي كتاباتـــه(١) ودارت على الألسنة (شفاهة ورواية وتنظيرًا)، وآلية للحكم القيميّ الدّارج في الاستعمال (التداولي) في إطار النسق الضِّمني الحواري أو السياقات الفكرية والثقافية والمجتمعية التـــي اشْـــتَقَّتْ مسمَّى الفحولة، وأسَّستْ لمعـــاييره، وتبنَّتـــهُ، وكرَّست له في العقل النقديِّ والوعي الجمعيِّ، ثم صارت «الفحولة» سلطة ثقافية ما لبثت أن اختلطت معالمها وتعدَّدت مسمّياتها، وتطورت شروطها وأشـــراطها مـــع تطـــوُّر الحـــراك الإبداعي والنقدي في القرنين الثالث والرابـــع للهجرة بعدما حلَّت محلَّها المعـــايير الســـبعة ممثلة في عمود الشعر أو النمـــوذج الأمثـــل لنظام القريض.

وينطلق الباحث في تقييمه لمعايير الفحولة من رؤية منهجيةٍ(وصفيةٍ تحليليةٍ) تتتبَّع مفهوم الفحولة وما اقترن به من معايير تداولها النقادُ ضمن الإطار أو النَّسق الثقافي الذي أسس لها في البداية، وما تستدعيه من مقـــولات نقديـــة يكتسبُ المسمَّى من خلالها علاقـــات دلاليَّـــةً وسياقيَّةً مكمِّلةً لها.

وتعودُ أهميةُ البحث إلى الكشف عن بعض الحلقات والأصول المهمة في النظرية النقدية العربية حيث تتشابك أطرافها مع إشـــكالياتها المطروحة في الخطاب النقدي، مثل: اللفـــظ والمعنى، والذوق الأدبي، والطبع والصـــنعة، والسرقات..، وكيفية استنباط هذه المعايير من واقع المقولات والنصوص التي هيـــأت لهـــا وأنتجتها.

وتبقى مقولات الأصـــمعي وأحكامـــه – فيما يتعلق بمعايير الفحولة– هـــي المنطلـــق والأساس في تحليـــل الـــدلالات والمفـــاهيم الظاهرة والمضـــمرة التـــي تنطـــوي عليهـــا

(*) هذه المدوَّنة المسمّاة بـــ(كتاب فحولـــة الشـــعراء) للأصمعي، بتحقيق: تشـــارلز تـــورّي، وتعليـــق: صلاح الدين المنجّد، دار الكتاب الجديد، بيروت، لبنان، ط٢، ١٩٨٠. وتتضمَّن سؤالات وجهها أبو حاتم السِّجستانيّ للأصمعيّ في أحـــوال الشـــعراء الأول في الجاهلية وعصر صدر الإســـلام، مـــن حيث الفحولة، والفصاحة، والحجّـــة ومـــا ترتَّـــب عليها في شأن قضية الاحتجاج وأثرها في علـــوم العربية.

(١) أقصدُ بالتداول النقديِّ لمعيار الفحولـــة اســـتعمال المسمَّى التواصلي في إطاره المحـــدَّد مـــن حيـــث معناه الضمني الحواري، أو اســـتعماله بمســـمَّياته ودلالاته ضمن عوامله السياقية في إطار موقـــف كلاميٍّ محدَّدٍ. انظر: عبده الراجحـــي، (عـــرض كتاب «المواءمة والاتصال والمعرفـــة»)، مجلـــة عالم الفكـــر، الكويـــت، ع٢، ١٩٨٧م، ص٢٨٦؛ وإدريس مقبول: الأفق التداوليّ (نظريـــة المعنـــى والسياق في الممارسة التراثيـــة العربيـــة)، عـــالم الكتب الحـــديث، إربـــد، الأردن، ٢٠٠١م، ص٨؛ وجيوفري ليتش: مبادئ التداولية، ترجمـــة عبـــد القادر قنيني، أفريقيا الشرق، المغـــرب، ٢٠١٣م، ص٩.

أحكامه، ويتم ربطها بالإطار البيئي والثقافي والتاريخي الذي أسس لها ومنحها هذه السلطة.

وإذا اعتبرنا أن هذه «المعايير» تمثِّل نسقًا من التصورات النظرية تُحيل إلى خلفية (معرفية/ لغوية)، وأن الحكم المختزل في كلمة واحدة، مثل «فحل، وليس بفحل، وفصيح وليس بفصيح... إلخ» علامة ثقافية (مُستدعاة) من الخطابات النقدية السابقة – التي تفتقر إلى كثيرٍ من دلالات حضورها في غير ذاكرة الناقد – لتكون عنصرًا (حَكَمًا) على البنية الأدائية الشعرية التي تُرشِّحُ صاحبها لحمْل صفة الفحولة، فهذا يعني امتزاج هذه (العلامة) أو الحُكْم المُقْتضَب بنوعٍ من الثقافة التي تُشكِّلُ نسقًا مرجعيًّا يُمارس سلطته على جملة النصوص دون أن يتوقف عند مضامينها أو خصائصها الشعرية؛ حتى وإنْ صحت بعض الإحالات التي أتت عرضًا في مدوَّنة الأصمعي النقديَّة ، فإنَّ هذه الأحكام ما هي إلَّا وثيقة سلطوية تتقنَّع بمرجعية لها جذورها المعرفية.

ويعتبر (الغَذَّامي) أنَّ هذه الأنساق أو المقولات التي تسرَّبتْ من الشعر ونطق بها الشعراء هي التي تُرسِّخ لفكرة الفحل أو الشخص (المُتشعْرِن)،أو الـ (أنا) الفحولية القادرة على إسكات الآخرين، التي صِيغت – منذ الجاهلية – صياغةً (سلبية/ طبقيَّة) ظلَّت مرتبطة بالتفرُّد، وتوظيف اللغة توظيفًا منافقًا، كما في المديح والهجاء، وأصلها الـ(نحْنُ) القَبلية التي تحوَّلت إلى الـ(أنا) النسقيّ (الفحل)، أو فحولة الفرد[١]، وقد أصبحت «الفحولةُ» نسقًا على مستوى الإبداع وعلى مستوى الاستقبال، حيث شكَّلت الفحولةُ (النقدية/ الشعرية) إطارًا مرجعيًّا يرسِّخ للأعراف الأدبية الجاهلية، ويحوِّلها إلى أنساقٍ ثقافية تُمكِّنُ لسلطة النموذج الأعلى من أجل خلق وعيٍ مطابقٍ، أو وعيٍ يمارس الطاعة والخضوع لهيمنة تُفْرَضُ عليه، وتلزمه بأداء الجماعة والذوبان فيها،[٢] وامتثاله للعُرْف قبل أن يترسَّم المعايير.

الفحولةُ (دلالةٌ وتصوُّر ومعيارٌ) في الشعرية العربية القديمة:

تُعدُّ «الفحولةُ» من المسائل النقدية التي أثارت جدلًا واسعًا بين نقَّاد الأدب في مراحله الأولَى؛ وقد أبى النقدُ– منذ القِدَم– إلَّا أن تكونَ له معاييره ومرجعياته التي تُلْزِمُ المبدعَ بالسَّير على حذوها وعدم مجاوزتها واستيفاء شروطها، فلما نما واستوى على سوقه في أوائل العصر العباسي وضع ميزانه الذي يرفعُ به أقوامًا من الشعراء ويخفض آخرين.

وقد ظلَّت هذه المعايير في مكانها ثابتة لم تُراع طبيعة الإبداع – باعتباره مظهرًا من

(١) عبد الله الغذَّاميّ: النَّقد الثقافي، قراءة في الأنساق الثقافية العربية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ٢٠٠٨م، ط٤،ص٧، ٨، ٩٣، ١١٩، ١٢٥.

(٢) نبراس هاشم ياس: فحولة شعر الصعاليك (سلطةُ نصٍّ أم نصُّ سلطة؟)، مجلة جامعة كربلاء العلمية، المجلَّد الثامن، العدد الثالث، ٢٠١٠م، ص١٤٧.

مظاهر الاختلاف الذي يكونُ بين النصوص في أبنيتها وأشكالها– أو التغاير في شعرية النصوص مع ثبات المعايير التي تحكمها رغم اختلاف الشرط الزمني والبيئي والثقافي الذي أفرزها.

وما «فحولة» الشعراء في مواصفاتها ومواضعاتها إلَّا منزلةٌ متى توفَّرت شروطها الزمانية والبيئية في بعض الشعراء البارزين، أو فيما يصدر عنهم من أشعارٍ، كانوا أحقَّ بها وأهلًا لها؛ وقد ظلَّ مقياسُ الفحولة مقرونًا بالسَّبق والإجادة عند الرعيل الأوَّل من النقاد (اللغويين والنُّحاة) حيث يؤول معناه إلى «القوة والغلبة والاقتدار»(١).

ومن تأويل هذه الصِّفات اشتُقَّ مصطلح «الفحولة» التي تعني قوة الطبع، وغلبة صفة الشعر (أو الاحترافيَّة)، وطول النَّفس الشعريِّ، والتمكُّن من أساليب الصنعة، والرواية، وسعة الثقافة، «إذ لا يصير الشاعرُ في قريض الشعر فحلًا حتى يروي أشعار العرب، ويسمع الأخبار، ويعرف المعاني، وتدورَ في مسامعه الألفاظ؛ وأوَّل ذلك أن يعلم العروض: فيكون ميزانًا على قوله؛ والنَّحو: ليُصلحَ به لسانه، وليُقيم إعرابه، والنَّسَبَ وأيَّام العرب ليستعين بذلك على معرفة المناقب والمثالب»(٢).

الفحولةُ – إذن– خصوصيةٌ لها معاييرها التي يجب توفُّرها في العمل الشعري، ولا تتهيأ إلا للكبار باعتبارها صفة من صفات (التميُّز والاختيار) التي تخضعُ أحيانًا لتوجُّهات الناقد المعيارية (٣).

وتعتمد رؤيتنا في هذا الجزء على استقراء أحكام النُّقاد في فحولة الشعراء المتقدمين وشعرية الخطاب عند المتأخرين، وتوصيفها وتحليلها من وجهة نظرٍ محايدة، من أجل الكشف عن مواصفاتها وملامحها من خلال النصوص. ولا شكَّ في أنَّ الواقع الذي أفرز هذا المسمَّى سابق على التأصيل له في بيئة اللغويين والنحويين، منذ أن عرف الإنسان التعبير عن أفكاره، وميَّز بين ضروب القول، واقتدر عليها، وقصَّد القصيد،ونقّح فيه وجوَّد، وبزَّ أقرانه حتى صار فحلًا، وهو المعنى الذي اجتمعت فيه هذه الصفات إلى جانب ما ذكرناه –من قبل– من مقوِّمات صناعة الفحل.

وفيما دون الاقتدار على القول في ضروب الشعر، تكون الغلبة للشاعر في مجالس الشعر –قبل الإسلام وبعده– «بالمفاخرة» و«المنافرة» والمحاجّة بين طرفين قد يتساويان، وقد ينتصرُ أحدهما فيكون هو

---

(١) اللسان: في مادة «فَحَلَ»، والفحولُ: هم الذين غلبوا بالهجاء من هاجاهم ، مثل جرير والفرزدق وأشباههما، وكذلك كلُّ من عارض شاعرًا فَغَلَب عليه.

(٢) ابن رشيق القيروانيّ: العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، نقلًا عن الأصمعي، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل اللبناني، بيروت، ط٥، ١٩٨١م، ١٣٢/١.

(٣) ومن هذه الصفات: (البداوة، والقِدَم، والوفرة، والرواية، والسَّير على طريقة الأوائل، كما عند نُقَّاد الفحولة، أو الخلفية المذهبية المستوحاة في مجملها من علم الحديث في الجرح والتعديل).

الغالب أو النافر؛ وكلاهما يفترض في الآخر خصمًا يعارضه.

ويرى (الزِّيدي) أنَّ تلك الأحكام كان حافزها العصبيَّة القبليَّة، والاعتداد بالنَّسب، أو العرق، وادعاء وراثة الشعر، أو هي نتاجٌ لجدليّة العلاقة بين الإبداع والنقد والتفاعل بينهما- وهي الأهم- نظرًا لما يترتَّبُ على هذه العلاقة من إطلاق أحكامٍ وأوصافٍ موجزة على ألسن الشعراء المُحَكِّمين أنفسهم(١).

وظلَّت مقاييسُ التفاضل سائدة على امتداد المشهد النقديِّ فيما قبل الأصمعي، واقترنت الإجادةُ والاستحسان، وتقديم الشعراء وتأخيرهم بإقامة الحجة عليهم، ومدى اتباعهم لطريقة الأوائل، وهو ما تجلَّى في تلك الأحكام النقدية التفاضلية التي يحكمها الذوق؛ منها ما ورد من مفاضلاتٍ تعتمد القياس بين نظيرين أو أكثر في بابٍ ما؛ أو في زمنين مختلفين، مثل قول أبي عمرو بن العلاء عن الأعشى: «مثلُهُ مثل البازي، يضربُ كبير الطَّيْر وصغيره»، أي: أنَّه يصطادُ الجيّد والرديء ولا يُبالي، ونظيره في الإسلام (جرير)، ونظيرُ النابغة (الأخطل)، ونظير زهير (الفرزدق)(٢).

ويتَّجه النقدُ- من باب القياس – إلى تمييز الخصائص الفنية للشعر في قول الجُمَحيّ: «كان علماؤنا يقولون: أحسن الجاهلية تشبيهًا امرؤ القيس، وأحسن أهل الإسلام تشبيهًا ذو الرُّمة»؛ أمَّا على مستوى الطبقة الواحدة، فكان أبو النَّجم العِجْليّ «الرجَّاز» أبلغ في النَّعْت من العجَّاج، وعبد الله بن قيس الرّقيَّات أشدّ قُريشٍ أسْرَ شِعْرٍ، (أي: بناء شعر) في الإسلام بعد ابن الزِّبَعْرَى، وكان عمر بن أبي ربيعة أغزَلَ في شعره منه(٣).

وتنحصرُ «الفحولة» بمقوِّماتها في تلك المرحلة في إطار الجودة والكثرة وتعدُّد الأغراض، والابتداع أو ابتكار أساليب وطرائق جديدة للشعر، والسبق إلى بعض المعاني؛ فامرؤ القيس –في نظر ابن سلَّام- سبق العرب إلى أشياء ابتدعها، واستحسنها العربُ واتَّبعتْهُ فيها الشعراء.. وفيه دعوةٌ إلى النَّسجِ على نموذجٍ مُستحسن أو هو دعوةٌ إلى الإبداع دون النَّسج على منوالٍ سابق؛ والدليلُ على ذلك من قوله في شعرية (الرَّاعي النُّميريّ): كأنه يعتسف الفلاة بغير دليل، أي: أنه لا يحتذي شعر شاعرٍ ولا يُعارضه(٤).

---

(١) انظر: توفيق الزِّيدي: تأسيس الخطاب النقديّ، أطروحةُ الجُمَحِيّ، عيون المقالات، الدار البيضاء، المغرب، ط١، ١٩٨٩م، ص٥٣- ٦٢.
وراجع: ابن سلَّام الجُمحيّ، طبقات فحول الشعراء، تحقيق: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، ١٩٨٠م، ٢/٥٤١، ٥٤٢، في ما ورد من استخفاف الأخطل (بكُثيّر) عندما قدم الثاني على عبد الملك بن مروان بالشام.

(٢) ابن سلَّام: طبقات فحول الشعراء، ١/ ٦٦.

(٣) ابن سلَّام: المصدر نفسه ٢/ ٥٤٩، ٢/ ٧٥٣، ٢/ ٦٤٨ على الترتيب.

(٤) ابن سلَّام: طبقات فحول الشعراء، ١/٥٥، ١/ ٥٢٠.

وقد يكون مثارُ الإعجاب بمثل هذه الأحكام في كونها توجز الخاصية الشعرية، وتختزلُها في كلمات منثورة محدودة الدلالة تحرِّك أذهانهم حين تأتي في صورةٍ مستمدَّة من محيطهم لتقريب جوانب القوَّة والضعف فيما يُعْرَضُ عليهم من أشعار ؛ وعلى أغلب الظَّنِّ أن كثيرًا من مفاهيم (الفحولة/ الشعرية) وتصوُّراتها لم تكن قد ترسَّخت بعدُ في صورة تعبيرات اصطلاحية تُلازم الشعر في مراحل تطوُّره وتسلِّم الحُكم للنقد في مدونَته العامة.

المقوِّماتُ قبل المسمَّى:

وتتبدَّى مقومات «الفحولة» قبل إطلاق مُسمَّاها – أو شيوعه– على كبار الشعراء، ومنهم (امرؤ القيس)، لما يتميّز به شعره من خصائص ومضامين فاق بها نظراءه من المتقدمين، وقد رُويَ أن أمير المؤمنين (عليّ بن أبي طالب) –>– قال فيه: «لو أنَّ الشعراء المتقدِّمين ضمَّهم زمانٌ واحدٌ، ونُصبَتْ لهم رايةٌ، فجَرَوا معًا، علمْنا من السابقُ منهم...، فقيل: ومَنْ هو؟ فقال الكِنديّ، قِيلَ: ولم؟قال: لأنّي رأيتُهُ أحسَنَهُم نادرة، وأسبقَهُم بادرة»[1]؛ وقد علم أمير المؤمنين بقدرة امرئ القيس وسبقه للشعراء، لأنه كان أحسنهم التقاطًا لنوادر المعاني، وأسبقهم ابتكارًا، أو ابتداعًا، أو استحداثًا أو اختراعًا لأساليب الشعرية وطرائقها، وهو بذلك مثلٌ للفحولة يُحْتَذى.

وتظل الصلة قائمةً بين «الشعرية» و«الفحولة» قبل انتقال النصوص من الشفاهية إلى الكتابة، أو الانتقال من شاعرية المُبْدِع إلى شعرية النَّص، فما رُوي عن عمر بن الخطاب –>–، أنَّهُ قال لابن عبَّاس: «أَنشدني لشاعر الشعراء، قال: ومَنْ هو يا أمير المؤمنين؟ قال: ابن أبي سُلْمى، قال: وبم صار كذلك؟ قال: لأنَّه لا يتتبَّعُ حُوشيَّ الكلام، ولا يُعاظلُ في المنطق، ولا يقولُ إلّا ما يَعْرِفُ، ولا يمدحُ الرَّجُلَ إلَّا بما يكون فيه»[2]؛فهو –>– يميّز بين الفحول في الشاعرية، ويُفاضِلُ بينهم، ويُعلِّل لذلك وفق خصائص ومضامين بعينها فينظر في الألفاظ والأساليب والمعاني، وفي النهج أو الطريقة، ويرى أن زهيرًا أشعر الشعراء في انتقاء ألفاظه المألوفة، وابتعاده عن الغريب منها، مع تجنُّبه تعقيد الكلام، وتداخُل المعاني وتراكُبها (بفعل سوء الرصف أو النظم)، وأثنى على منهجه في الشعر من حيث التزامُهُ الحق والصدق والاعتدال في القصْد، والابتعاد عن الإفراط والغلوِّ.

وليس من شك في أنَّ مثل هذه الأحكام، وغيرها– إذا صحَّت الروايات– كانت مهادًا لصفة الفحولة، وملامحها الفنية؛ وهو ما أسهم في وضع تصوّرٍ للنموذج الأعلى في الشعر الذي يجب أن يُحتَذَى، أو القالب الأمثل لنظام القريض الذي سُمِّيَ –فيما بعد – «بعمود

(١) ابن رشيق القيروانيّ: العمدة، ١/ ٤١، ٤٢.

(٢) ابن سلَّام: طبقات فحول الشعراء، ١/ ٦٣.

الشعر»، الذي بنى عليه النُّقادُ أسس الشاعرية، وتقديم الشعراء على غيرهم بوصفهم روّادًا فيها بعد استيفائهم لجُمْلة من عناصر الشعرية العربية المتمثِّلة في صناعة الشعر وصناعة «الفحل».

الأخذ بشعرية النصِّ مهادٌ للحكم بالشاعرية:

وتظلُّ فحولة الشعراء، بمقوِّماتها وشروطها، رهنًا للإطار المرسومِ لها من قبل الرواة واللغويين والنحاة، وهم العالمون بأساليب العربية وطرائقها، وأسرارها، ومن خلالها حدَّدوا أصول «الفحولة» واستلهموا مواصفاتها ومقاييسها من لسان الشعراء الفُصحاء. وإذا كان لهؤلاء النقاد الفضل في ترسيخ أصول الشاعرية فيما بعد مرحلة التدوين، فإن الشعراء المتقدِّمين كانوا الأسبق بالفضل وزيادة في تحديد أوصاف الشعرية ومواصفات «الفحولة» أو الشاعرية من خلال إبداعاتهم الرائدة، وآرائهم النقدية، وتأصيلهم لمجموعة من القيم والتقاليد الفنية، وتأسيسهم لمعايير «الفحولة» من خلال شعرية النصِّ.

والمبدعُ (بطبعه) ناقدٌ لشعره، يعرف كوامنه، ويدرك أسراره، ويتحسَّس عيوبه، ويستسيغُ وقْعَهُ، ويبتغي اكتماله قبل أن يدفع به إلى القارئ؛ ومنهم «الفحول» الذين أتقنوا حرفة الشعر، وأحكموا صنعة الكلام فحازوا الرِّيادة والسَّبق في ابتداع المعاني، واتِّباع طرائق العرب ومذاهبهم. وقد سطر هؤلاء الشعراء المتقدِّمون من أحاديث الشِّعر ما يدلُّ على معاناتهم اللحظة الشعرية ومعالجتهم لصعوبات التجربة، ووعيهم بأسرارها ومقوماتها، ومهيئاتها، وتمكنهم من آليّاتها، وتمسكهم بالقيم التي يتطلبها الجمهور لتكون دليلاً على امتلاكهم ناصية الشعر، وتسنُّمهم مرتبة «الفحولة».

وقد وضعوا نصب أعينهم معايير الصحة والخطأ التي تُشتقُّ منها معايير الفحولة؛ فليس منهم (الفرَّاثُ) الذي لا يقيمُ الشعر ولا يدرك أصول الصنعة؛ أو(المُجْتلِب) الذي ينتحل شعر غيره لعجزه، أو (المحتذي) المقتدي بغيره من الشعراء[(١)].

يقول نابغة بني شيبان (من البسيط):

والنَّاسُ في الشِّعْرِ: فرَّاثٌ ومُجتلِبٌ

وناطقٌ محْتَذٍ منهمْ، ومُفْتَعِلُ[(٢)]

ومنهم من يدَّعي لنفسه التفرُّد بين أضرابه من الشعراء بإدراك بكارة المعاني، وغزارتها، واتِّكائه على صحيح طبعه وكدِّ ذهنه، بقوله (من الوافر):

سل الشعراءَ هل سَبَحوا كَسَبْحِي

بحورَ الشِّعرِ، أو غاصوا مَغَاصي[(٣)]

وممَّا يُعضِّد المثل الأعلى في (الشعرية) عنده ما ضمَّنوه من أصول فنية يقوم عليها بناءُ الشعر في نسجه وحوكه، أو كلام الشِّعر

---

(١) عبد العزيز الخراشي: ظاهرة حديث الشعر عن الشعر، من العصر الجاهلي حتى العصر الأموي، الآفاق والغايات، إصدارات جامعة الملك سعود، الرياض ط١، ٢٠١٢م، ص٢٧٩.

(٢) نابغة بني شيبان (ت ١٢٥هـ): ديوانه، دار الكتب المصرية، القسم الأدبي، القاهرة، ط٢، ١٩٩٥م، ص٩٦.

(٣) عبيد بن الأبرص: ديوانه، شرح: شريف أحمد عدرة، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٩٤م، ص٧٣.

في لغته وبما يدلُّ على قائله من صدق التجربة وإحكام النسج:

تمَّتْ قصيدةُ حـــقٍّ غير ذِي كَذِبٍ
في حَوْكِها من كلام الشِّعرِ تأليفُ[١]

وربما بلغ الشاعرُ ما انتهى إليه الأسلافُ من معانٍ،وأدرك سعيهم، وزاد على تِلادهم بطريف شعره، فهو ينهلُ من بحر معانيه الواسع، وهم ينهلون من جدوله، ومن ثمَّ فهو مبتدعٌ لا متَّبِع:

ما نال بحري منهمُ من شاعرٍ
إنِّي فتًى أدركتُ أقصى سعيهـــــم
ممَّن سمعْتُ به ولا مُستَعْجَلِ
وغَرَفْتُ من بحرٍ وليس بجدوَلِ[٢]

وللشاعرية أسرارٌ، وللمعاني أبوابٌ تَفْتَحُ مغاليقها بصيرةُ الشاعر، حيث يقول أبو الأسود الدؤليُّ (ت ٦٩هـ) (من الطويل):

نطقْتُ ولم يعجـــز عَلَيَّ رويُّهـــا
وللقولِ أبوابٌ تُرَى ومخاصِـــرُ[٣]

وقد يُنازع امرؤ القيس القوافي فيُخضعها له، ويختار منها ما توارد على خاطره، وهو في فسحةٍ منها، وكيف «لا» وهو شاعر العربية الأوَّل؛ يقول (من المتقارب):

فأعزلُ مُرْجانها جانبًا
فلمَّـــا كَثُـــرْن وعَنَّيْنَهُ
وآخذ من دُرِّها المستجادا
تخيَّر منهـــنَّ سِـــرًّا جيـــادا[٤]

ومن معايير «الفحولة» التمكُّن والاقتدار، حيث يجعل (حسان بن ثابت) من الملكة الشعرية موقظًا لحركة الشعر، وفيوضات الشاعرية، قائلاً (من الطويل):

إذا ما كَسَرْنا رُمْحَ رايـــةِ شاعـــرٍ
يَجيشُ بنا ما عندنـــــا فنعـــاوِدُ[٥]

ولا تكتملُ «الفحولة» دون اكتمال شعرية القصيد، وذلك من خلال معاناة الشاعر في معالجة تجربته، وما تتطلَّبُهُ من نقاء الطبع، وصفاء الملكة الشعرية، والمعرفة بأصول الصنعة، وفي هذا المعنى يقول (ابن جنِّي): «ليس جميع الشعر القديم مرتجلًا، بل قد كان يَعرضُ لهم فيه من الصَّبر عليه، والملاطفة له، والتلوُّم على رياضته، وإحكام صنعته على نحوٍ مما يعرض لكثير من المولدين»[٦].

وهذا يؤكد على أنَّ الطبع (أو حسن التأتِّي) مقرونٌ بالتأمل الفنِّي (أو الصنعة)، وبما يبذله الشاعرُ من جُهْدٍ في ترويض الإبداع لإدراك ما استعصى عليه، وهذا من

---

(١) نابغة بني شيبان: ديوانه، ص٥٤.

(٢) سُراقة البارقي: ديوانه، تحقيق وشرح: حسين نصّار، لجنة التأليف والترجمة والنشر، ط١٩٤٧،، ص٧٠.

(٣) أبو الأسود الدُّؤليّ: ديوانه، صنعة السُّكَّري، تحقيق محمد حسن آل ياسين، دار الكتب الجديدة، بيروت، ط١، ١٩٩١م، ص٩٨.

(٤) امرؤ القيس بن حُجر: ديوانه، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ذخائر العرب (٢٤)، دار المعارف بمصر،ط٣، ١٩٦٩، ص٢٤٨؛ وراجع: عبد العزيز الخراشي، ظاهرة حديث الشعر عن الشعر، ص٤٢.

(٥) حسَّان بن ثابت الأنصاري: ديوانه، بتحقيق: سيد حنفي حسنين، دار المعارف بمصر، ١٩٨٣، ط٣، ١٩٦٩م، ص٢٤٨.

(٦) ابن جنّي (أبو الفتح عثمان): الخصائص، تحقيق: محمد علي النجار، دار الكتاب العربي، بيروت لبنان، (د. ت)، ١/ ٣٢٤.

«علامات الفحولة»؛ وربما يواتيه الشعر دون عناء، يقول (أبو النَّجم العِجْلِيّ) (من مشطور الرَّجز):

والشِّعرُ يأتيني على اغتماضِ
طوعًا وكَرْها، وعلى اعتراضِ[١]

وكما كان يفعل الشاعر البدويُّ القديم من تجاوبٍ مع حالته الإبداعية وتداعياتها، ويتخلَّص من هموم التجربة إذا سرى اللَّيلُ وأضناه السَّهَر، فيبيتُ يرعى القوافي، ويقيِّدُ شاردها، حتى يبلغ الجهد مبلغه، ثم يهجع بعد طول عناء. يقول (سويد بن كُراع العُكْلِيُّ) (من الطويل):

أَبِيتُ بأبواب القوافي كأنما
أُكالئها حتى أُعرِّسَ بعدما
بعيدة شأوٍ لا يكادُ يردُّها
أصادي بها سربًا من الوحشِ نُزَّعَا
يكونُ سُحَيْرًا، أو بُعَيْدُ فأهجَعَا
لها طالبٌ حتّى يكِلَّ ويظْلَعَا[٢]

والشاعرُ «الفحلُ» هو الذي يبدعُ عن رغبة من ذاته الشاعرة، ويستجيب لبواعث تجربته ومن ثمَّ فهو صادقٌ مع ذاته مدركٌ لمقاصده، يقول(أعشى بني ربيعة) (من الطويل):

وفضَّلني في الشِّعرِ واللُّبِّ أنَّني
أقولُ بما أهوَى، وأعرفُ ما أعنِي[٣]

وتقترن «الفحولة» بالرِّيادة في «المديح» وما يقترنُ به من قيمٍ ودواعٍ تُحرِّكها الرغبةُ في نيل العطاء والثناء، مما يدفع الشاعر إلى التجويد، وتخيُّر أحسن المعاني، ويقفها على ممدوحه، حتى تخلد، وذلك في قول الأحوص (من الكامل):

مِدَحًا تَكُونُ لَكُمْ غَرَائِبُ شِعْرِهَا
فإذا تنخَّلتُ القريضَ فإنَّهُ
أثني عليكمْ ما بقيتُ فإنْ أمتْ
مبذولةً، ولغيركُمْ لا تُبْذَلُ
لكمُ يكونُ خيارُ ما أتنخَّلُ
تَخْلُدْ غَرَائِبُهَا لَكُمْ تُتَمَثَّلُ[٤]

وتقترن «الفحولةُ» في معناها بالغلبة في الهجاء، وبقدر ما يحرّكُهُ من بواعث وكوامن في النفس، منها: الحَنَقُ والغضب، وهو في الأصل سلبٌ، وانتقاصٌ لكريم الخصال، ويذود الشاعر فيه عن كرامته، ويهوِّن من خصمه، ويسخر منه، ويظهر قوة شاعريته ومنعتها فلا يقترب منها أحد. يقول (عديُّ بن الرِّقَاع العامليُّ):

حدِّثْتُ أنَّ رُوَيْعي الإبْلِ يَشْتُمُني
فأنت والشِّعْرَ إذ تُزْجي قَوافِيَه
واللهُ يَصرفُ أَقْوَاماً عن الرَّشَدِ
كمُبْتَغي الصَّيْدِ في عِرِّيسَةِ الأسَدِ[٥]

---

(١) أبو النّجم العِجْلي: ديوانه، شرح: علاء الدين أغا، النادي الأدبي، الرياض، ١٩٨١م، ص١٢٦.

(٢) ابن قتيبة (عبد الله بن مسلم): الشعر والشعراء، تحقيق وشرح: أحمد محمد شاكر، دار الحديث، القاهرة، ١٩٩٦م، ٢/ ٦٣٥.

(٣) أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني، شرح: علي مهنا، وسمير جابر، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ١٩٩٢م، ١٣٦/١٨.

(٤) الأحوص الأنصاريّ: ديوانه، تحقيق وشرح، سعدي

(٥) عديّ بن الرِّقاع العامليُّ: ديوانه، عن أبي العباس

كما يُعَدُّ الفخر من موضوعات الشعر الكبرى التي يجيد فيها الفحول، وهو علامة عليها (أي الفحولة) حين يحتكم إلى أشعاره في تقديم شاعرٍ على شاعر آخر، ومن شيم العرب الإطراءُ وحبُّ الذات، والرغبة في ذكر الفضائل، وإحراز المجد، والسبق إلى المكارم في مقابل من لا يمتلك مثل هذه الخصال. يقول (الطِّرماح) (من الطويل):

لنا سابقاتُ العزِّ والشِّعرِ والحَصَى
وربْعيَّةُ المجْدِ المُقَدَّمِ والحَمْدِ[1]

وكم رفع الفخرُ أقومًا، وتعدَّدت فيه غاياتُ الشعراء، وتسَنَّموا من خلاله أعلى مراتب «الفحولة»، لكنَّ شعرية الرثاء أدخلت النساءَ في زمرة «الفحول»، وضمنت لأشعارهن البقاء في مقدِّمة الشعراء، وهو ما خطَّتهُ ليلي الأخيليَّة (ت ٩٥هـ) = أشعر النساء (كما روي عن الأصمعي)، ولايُقدَّم عليها غير خنساء السُّلَميّة= بمدادٍ من الألم والدَّمع على محبوبها (توْبَة بن الحُمَيِّر)، فتقول (من البسيط):

ياعينُ بَكّي بدَمْعٍ دائمِ السَّجمِ
على فتًى من بَني سَعْدٍ فُجعتُ بهِ
من كلّ صَافيةٍ صرْفٍ وقافيةٍ
وابكي لتوبة عند الروع والبهمِ
ماذا أُجِنَّ به في الحُفْرَةِ الرَّجِمِ
مثل السِّنان وأمر غير مُقتَسَمِ[2]

ولا شكَّ في أنَّ ما دوَّنه الشعراء الفحول من أصول الشعرية ومقاييس الفحولة، ومواصفاتها وشروطها، وترسيخهم لجملة من القيم والتقاليد الفنية، إنما يمثِّل نموذجًا «للفحولة» في صورها المتعددة، وتبقى مثلًا «للشاعرية» يُحتذى به عند من يأتي من بعدهم، وعونًا للنُّقاد في استنباط أسس الفحولة، وشيوع الموازنات النقدية، واستخلاص قواعد النحو واللغة والعروض؛ والوعي برسالة الشعر والأثر الذي يتركه في مُتَلقِّيه. وهو ما يعود إلى إدراك (الشعراء/ النقاد) فاعلية الكلمة ووقعها إنتاجًا وتلقيًا[3].

معايير الفحولة:

هناك ما يستدعي البحث فيما يُضمرهُ الخطابُ النقديُّ من رؤىً حول أشعار الفحول التي يُعتدُّ بها في القياس والاحتجاج وفق تراتُبيَّتها المفترضة التي تضعها في سُلَّم الفصاحة. وتنطلق هذه الخلفية من تصوُّر لوجود سلطةٍ مركزيَّةٍ للعربية المُثْلَى كُلَّما ابتعد عنها الشاعرُ بلغته ضَعُفَتْ وخالطها اللَّحنُ والعجمة، وقد ارتبط مفهوم المركز في

(١) الطرمَّاحُ بن حكيم، حياته وديوانه، تحقيق: عزة حسن، وزارة الثقافة والسياحة والإرشاد القومي، مطبوعات مديرية إحياء التراث القديم، دمشق، ١٩٦٨م، ص٣٣٠؛ وعبد العزيز الخراشي: ظاهرة حديث الشعر، ص١١٢.

(٢) ليلى الأخيلية: ديوانها، تحقيق: خليل إبراهيم العطية،وجليل العطية، دار الجمهورية، بغداد، ط٢، ١٩٧٧م، ص١١٥.

(٣) محمد زيوش: الشعرية العربية من تعالي البنية إلى انفتاح النص، قراءة في مفهوم الشعرية وتطورها في الدرس النقدي العربي التراثي، مجلة العرب، دار اليمامة للبحث والنشر، الرياض، يونيو، يوليو ٢٠١٦م، ص١٥٧.

التصوُّرِ العربي بمفهومي البداوة والقِدَم، وأوجد التفرقة بين أهل المَدَرِ وأهل [الوبَر]، والتمييز بين أهل السليقة والمولّدين(١).

وقد تبنَّى (الأصمعيُّ) آليات خاصة، ومعايير تنطلق من مرجعية لغوية تتشبث بالمقاييس المتوارثة في تقويم الشعراء من أهمها مقياس «الفحولة» الذي ترك أثرًا سلبيًا على الذوق بعد أن اقتصر في حكمه على النخبة الشاعرة، وإن لم يكونوا على درجة واحدة، وترك كثيرًا من الشعراء ممَّن يراهم غير جديرين بهذا اللَّقب.

وظلَّت الفحولة بخصائصها الذاتية تحملُ بُعدًا معياريًّا تقويميًّا كما في طبيعة المصطلح اللغوية، أمَّا البعد الوصفي فينطوي على تصوُّر (مُغيَّب) لقياس المقدرة فيه(٢)، حيث يفترضُ اللغويون نمطًا أو متنًا يستجيب لقواعد التأليف، وتصوّرًا يخضع لسلطة المعايير من حيث يمارس الشعراء فعلهم الإبداعي، وليس لأحدٍ منهم أن يخرج عن هذا النّمط.. وهكذا يتأسس النموذج الذي يُقاسُ عليه ما يقدِّمه الشعر «بوصفه أداةً ضرورية لاكتساب اللُّغة، ولأنه ينقلُ ثقافة ينبغي تملُّكها.. لأنَّه في النهاية يخلِّد تقليدًا ثقافيًا ويؤمِّنُ دوامَ خطابٍ نقديٍّ لمعايير التقويم»(٣).

والفحولةُ من الوحدات اللغوية الدَّالة التي تؤدي مفهومًا معيّنًا في مرحلة التأسيس للنقد، وإن لم يبلغ المسمَّى أشُدَّهُ وأخذ يعاني من عدم التحديد أو استقرار مدلوله، ومن ثمَّ تباينت الأحكامُ التي بنيت على أساسٍ منه، واضطربت ولفَّها الغموضُ أحيانًا؛ وقد مرَّ مسمَّى «الفحل» في تطوُّره الدلالي بحالةٍ من الخلط بعد دخوله في مقارناتٍ مع مسمَّياتٍ أخرى مشابهةٍ له في القِدَم؛ فمرةً يأتي صريحًا ليدُلَّ على الشاعر المقتدر القويّ الأجود في الشاعرية والرواية، و«الخِنْذيذ» الذي يجمع بين جودة الشعر ورواية الجيّد من شعر غيره، و«المُفْلِق» الذي لا رواية له، إلَّا أنَّهُ مجوِّد، و«الشاعر» فقط، وهو الذي فوق الرديء ودون هؤلاء، أو «الغالب» الَّذي غُلِّبَ في الهجاء، و«الحُجَّةُ» و«الثّنيان»، والمقاحيم، والجدعان.. إلى غير ذلك؛ حيث تعدَّدت هذه المسمَّياتُ والنعوتُ، وتعدَّدت أحوال ورودها، وتحولت الفحولةُ من معنى الاقتدار غير المشروط إلى الاقتدار المشروط(٤)، وراج

---

(١) محمد أمين: قراءة النصِّ التراثي، سؤال المنهج ومنطق الخطاب، مجلة جذور، النادي الأدبي بجدَّة ، المملكة العربية السعودية العدد ٣٧- يونيو ٢٠١٤م، ص٤٥.

(٢) عبد السلام محمد رشيد: لغة النقد العربي القديم بين المعيارية والوصفية حتى نهاية القرن السابع الهجري، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٠٨م، ص٤٦.

(٣) جمال الدين بن الشيخ: الشعرية العربية، مقالة حول خطابٍ نقديّ، ترجمة: مبارك حنون، ومحمد الولي، ومحمد أوراغ، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب ط١، ١٩٩٦م، ص١٠- ١٢.

(٤) الشاهد البوشيخي: مصطلحات النقد العربي لدى الشعراء الجاهليين والإسلاميين، قضايا ونماذج، دار نشر «القلم»، ط١، ١٩٩٣م، ص١١- ١٣، ٥٦- ٥٩؛ حيث يمرُّ المسمَّى أو المصطلح

تداوله في القرنين الأول والثاني من الهجرة، ثم ضاقت دائرته، وخبت جذوته في الاستعمال مع اكتمال الشعرية العربية ممثَّلة في عمود الشعر الذي ترسَّخت قواعده ونعوته في كتابات النُّقاد عن الشعراء المحدثين في القرون التالية لابن سلّام.

وهذا ما استقرَّ عليه تداول المصطلح بمسمَّياته والمعايير التي اقترنت به في كتابات النَّقاد المتقدمين منذ بداية المشروع التأسيسي عند نقاد القرنين الثاني والثالث للهجرة، مثل: الأصمعي، وابن سلّام، وابن قتيبة، والمُبرِّد وابن المعتزّ؛ ومن جاء بعدهم كابن طباطبا، وقدامة، والصولي، والآمدي، والقاضي الجرجاني، والمرزوقي، وابن رشيق، وعبد القاهر (في النَّظْم)، والتوحيدي؛ وفي الأقاويل المستندة إلى المحاكاة والتخييل كما عند (القرطاجنِّي) وانتهاءً بابن خلدون.

ولم تغب أوصافُ «الفحولة» ومعاييرها عن أذهان هؤلاء النقَّاد، وإنما بدت في نظرتهم النقدية في شعرية كلِّ مرحلة وفي الموازنات والمناظرات التي تقترن بتوجهات النقاد المعيارية.

اختلاف المعايير في تعدُّد المسمَّيات:

كان تصنيف الأصمعي للشعراء إلى (فحول/ وغير فحول) مجالًا يستوعب كثيرًا من مسمّيات «الفحولة» ويوسِّع من دائرتيها، حيث بدأ «بالنابغة» أوَّل الفحول من المقدَّمين المفضَّلين، و«امرئ القيس» رأس الشعراء، وله الحُظوةُ والسَّبْق، وكلُّهم أخذوا من قوله واتَّبعوا مذهبه، ومنهم «فحول الفرسان»، و«رأس الفحول»، كما وسَّع من الدائرة الثانية، فجعل منهم «من يُشبه الفحول»، أو يلحق بهم، ومَنْ «ليس بفحل»، ومنهم «الكريم وليس بفحل»، ومنهم «مَنْ يُظَنُّ بأنه من الفحول»، ومنهم «الفرسان»، ومَنْ «ليسوا بفرسان»، ومنهم من «يُحتجُّ بشعره»، ومن «ليس بحجَّة»؛ ومنهم «الثَّبْتُ الفصيح»، ومَنْ «ليس بفصيح»؛ و«الصالحُ»،و «المُغلَّب» و«الغالب»[1].

وذكر بعض الأحكام في تفضيل بعض الشعراء رغم تأخُّر زمانهم، مثل «الأخطل»، وأنه سمع أبا عمرو بن العلاء يقول: لو أدرك الأخطلُ من الجاهلية يومًا واحدًا ما قدَّمتُ عليه جَاهليًّا ولا إسلاميًّا[2]. ويبدو واضحًا أنَّ الأصمعي كان متأثِّرًا – إلى حدٍّ كبيرٍ – في أحكامه بتلك التي كانت تصدر في مجالس الشعراء في الجاهلية، وفي عصر صدر الإسلام حتى إنه كرَّر صفة «الشاعرية» حكمًا على الشعر في مواضع كثيرة من كتابه، فقال:

بمراحل معيّنة في تطوره، وأحوال وروده في الاستعمال، فإما يَرُوج فيثبُت أو يتوارى. راجع: علي القاسمي، مقدِّمة في علم المصطلح، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٨٧م، ط٢، ص٦، ١٧، ١٨، ٢١٥، ٢١٧؛ وعبد السلام المسدِّي: قاموس اللسانيات، مع مقدمة في علم المصطلح، الدار العربية للكتاب، ١٩٨٤م، ص٢٧، ٨٧.

(١) الأصمعي: كتاب فحولة الشعراء، ص٥، ٩، ١٠.

(٢) الأصمعي: كتاب فحولة الشعراء، ص١٣.

«ودريد في بعض شعره أشعرُ من الـذبيانيّ» و«خُفَافُ أشعر الفرسان»، و«أيُّ النَّاس أشعرُ قبيلةً؟» و«أنا أقولُ: أشعرهم واحـدًا النابغـة الذّبيانيّ»[١]... وهكذا، مما يوحي بنوعٍ مـن الارتباط بين «الفحولة» و«الشاعرية». وقـد أدى تعدُّد المسمَّيات إلى اخـتلاف المعـايير، ومن ثم عدم دقة الأحكام؛ فهو تـارة يجـزم بفحولة الشاعر «صراحةً»، فيقول «فحلًا» كما في حكمه على علقمة، والحارث بـن حلِّـزة والمسيَّب بن عَلَس[٢]، وتـارة يتشـكك فـي الشاعر، فيقول: «أظنُّـهُ مـن الفحـول، ولا أستيقنه» قالها في (كعب بن جعيل) [٣]، وتارة يُنْبئ عن اجتهاد شخصيٍّ، فيقول: «أرى أنّـه من الفحول»، قالها في (مالـك بـن حـريم الهمْدانيّ) [٤]، وفي الأسود بن يعفر النهشلي: (يُشبه الفحول)[٥].. وصار وصـف الشـاعر بالفحولة، وترتيب الفحول، ووضعهم ضـمن طبقاتٍ أمرًا يحكمه الاجتهـاد، فالنابغـة قـد زُحزح عن رئاسة الفحول في لحظة تأمليَّـة ليحلّ محلّهُ امرؤ القيس[٦].

ويتّضح مما سبق أن «الأصمعي» قد أقام المصطلح على عدة معـايير، أولهـا القـدم، وبداوة اللغة، وغلبة صفة الشعر على ما دونها من صفات، والأخذ بالمشهور عن الشـعراء، والمعيار الفني، والعـددي، وربمـا اسـتلهم الأصمعي تلك المعايير مما كان سـائدًا فـي المرويَّات وما أودعه المدوِّنون في صـحائفهم على غرار الصُّور المأثورة عـن مجـالس الشعر، ثم طوَّر منها على سبيل القياس وفـق معايير علمية لتنتقل من الإطار الصوري أو التشكيلات اللغوية إلى رمز وصفيٍّ تقـويميٍّ ينطوي على حكم عام على الشعرية، ورؤيـة تتجاوز تفوهاته النقدية التي تستعجل الحكـم وتقرره في ظل انتظارات السائل.

وقد وسَّع ابن سلام من دائرة الفحولـة، ورتب الشعراء وفق معايير الجودة، والكثـرة وتعدُّد الأغراض، وأعاد إلى كثير من الفحول اعتباراتهم: كالأعشى، وعمرو بـن كلثـوم، ولبيد، وعنترة؛ والشنفَرَى بعـد أن أقصـاهم الأصمعي عن رتبة الفحول، وقد احتكم فـي ذلك لذوقه وحسّه الفنيّ وثقافتـه وإلـى آراء العلماء والشعراء[٧]. وكذلك فعل ابن قتيبة في (الشعر والشعراء) حين عرض للمشـهورين ممَّن يقع الاحتجاج بأشعارهم في الغريب، وفي النحو، وفي كتاب الله – ﷻ –، وحديث رسول الله –ﷺ–[٨]، وفهـم الشاعرية كما فهمها فهمها ابن سلام على أنها صفة سيادة وتميُّـزٍ وغلبة وتفرُّد.

(١) الأصمعي: المصدر نفسه، ص١٥، ١٨، ١٩.
(٢) الأصمعي: المصدر نفسه، ص١١.
(٣) الأصمعي: المصدر نفسه، ص١٢.
(٤) الأصمعي: المصدر نفسه، ص١٢.
(٥) الأصمعي: المصدر نفسه، ص١٤.
(٦) الأصمعي: المصدر نفسه، ص١٥.
(٧) ابن سلام الجمحي: طبقات فحول الشعراء ٢٤/١، ٢٦، ٥٠، ٧١. وراجع: طه أحمد إبراهيم: تـاريخ النقد الأدبي عند العرب من العصر الجاهلي إلـى القـرن الرابـع الهجـري، دار الكتـب العلميـة، بيروت، ط، ١٩٨٩م، ص٨١.
(٨) ابن قتيبة (عبد الله بن مسلم): الشـعر والشـعراء،

ويُعزى الفضلُ للشعراء النقاد، ومن بعدهم الأصمعي وابن سلّام في تداول مسمَّى «الفحولة» ووضع الضوابط والمعايير التي يُحتكم إليها في التمييز بين الجيّد والرديء إلا أن هذا المفهوم ظل مفتقرًا إلى الدقة في التحديد، وهو ما أحدث نوعًا من التباين في الأحكام التي صدرت تجاه العديد من الشعراء، وخاصة في كتاب (الفحولة)؛ ويُحسبُ لهم فضل التأسيس لقواعد الشعرية التي اجتمعت – فيما بعد– تحت مسمّى «عمود الشعر»، أو ميزان النقد الذي يعتمد طريقة الشعراء الكبار معيارًا ومرتكزًا يحتكم إليه في بيان الجودة التي تستوفي شروطها، ويتجلَّى حضورها في تلك الأبنية الدالة، أو المكونات المعيارية، والعلاقات التي تُحيل إليها من أجل الحفاظ على الشعرية العربية.

كما يعود الفضل في إرساء أسس التقويم والتأصيل لمعايير الشعرية وتوضيح معالمها إلى ابن طباطبا العلوي في (عيار الشعر)، والمرزوقي (في مقدمة شرح ديوان الحماسة) بما يمتلكان من نفاذ البصيرة، ونضوج الحس النقديّ، ومعرفة خصائص التعبير وضروب الصياغة، ويركز العلوي في (عيار الشعر) على أن الشعر ممارسة لغوية وفعل إنساني وضع ضمن حدود مضبوطة بحيث لا يتم الحكم على الجودة من عدمها إلا انطلاقًا من معايير موضوعية غير الذوق، لأن الشعر أصبح صناعة[1]؛ وقد جعل (المرزوقي) لكلِّ معيارٍ بلاغته، ثم قال: «فمن لزم هذه الخصال بحقها، وبنى شعره عليها، فهو عندهم المُفْلق المعظَّم، والمحسن المقدَّم، ومن لم يجمعها كلها فبقدر سُهمته فيها يكون نصيبه من التقدُّم والإحسان، وهذا إجماعٌ مأخوذٌ به، ومُتَّبَعٌ حتى الآن»[2]. وقد سعى هؤلاء لتأسيس شعرية عربية وظيفتها التمييز بين الشعر واللاشعر.

على أنه لا يجب أن تُفرض أصول النقد وقواعده على الأدب من خارجه، وإنما يجب أن تستنبط من نصوصه، وتلتمس من خصائصه وبواعثه، وتراعي شروطه الثقافية والمجتمعية دون أن تكون قيدًا على حرّية الإبداع والتفكير.

وإذا كانت (الفحولة) عند الأصمعي تعني مجموعة من الخصائص الذاتية التي ترتقي بالشاعر في درج التميُّز، فكذلك فَعَل ابن سلام وابن قتيبة وابن المعتزّ في وضع الشعراء في مجاميع متشابهة، ومتناظرة في الخصائص، وميَّزوا بينهم وفق سُلَّمٍ قيميٍّ تدريجيٍّ، غير أنَّهم لم يتفقوا على أيِّ الشعراء أولى بالتقديم، وأيِّ القصائد أو الأبيات أحق بالتفضيل، بل اختلفوا فيما بينهم في معايير القيمة وفيمن يمثلها في الشعر العربي.

---

(١) ابن طباطبا العلوي: عيار الشعر، تحقيق: محمد زغلول سلام، منشأة المعارف، ١٩٧٧م، ص٤١؛ وراجع: جمال الدين بن الشيخ: الشعرية العربية، ص١٢.

(٢) المرزوقي (أبو علي أحمد بن محمد): مقدمة شرح

وليست الجودة وقفًا على زمن بعينه، وإنما هي في تعدُّد السبل التي يسلكها الشعراء ليبقى القول بالشاعرية مع امتلاك العلم والذوق سببًا لتباين الناس في العلم واختلاف مذاهبهم في الشعر –كما قال الآمدي–[١] الذي طوَّر كثيرًا من معايير الفحولة في موازنته.

ويستجمع القاضي الجرجاني ملامح الفحولة عند المتقدِّمين، ويقرنها بما عند المتأخِّرين، فيتصوَّرُ نموذجًا للأدب الراقي يتضمَّن وسطية اللغة ونقاءها، كأن تختلف في قوتها ومرونتها حسب الأغراض التي يُعبِّر عنها الكاتب، وأن تُقسَّم الألفاظُ على رتب المعاني، دون تكلُّف في التجربة أو إكثار في الصنعة، ويحتكم إلى عمود الشعر ليقيس عليه شعرية النموذج الجيّد عند المحدثين[٢].

لكن الإنصاف يقتضي منا القول بأن حرص النقاد (اللغويين والنحويين) على نقاء اللغة جعلهم يحتاطون لأنفسهم عند تخيُّر النموذج الأعلى في لغة العرب للاحتجاج به على صحة اللغة، واستنباط قواعد النحو والقياس ومعرفة الأخبار والأنساب، وقد ضيقوا من دائرة الاحتجاج والاستشهاد فجعلوها وقفًا على من يُعتدُّ بشعره، ولم تنل من فصاحته عدوى التخليط ، ومراكنة الأعاجم، ولم يفرِّقوا بين قديم ومحدث عند نقاء اللغة، وقد طبق هؤلاء النقاد المعيار النموذج في الشعر دون تمييز بدليل أنهم قد حجبوا صفة الفحولة عن بعض شعراء المعلَّقات مثل: (عنترة)، ولم يعتدُّوا بالمكان حين رفضوا قبائل بأكملها في الجاهلية، لم يتوفَّر في لغتها شرط النقاء، ومن يحتج بشعر أهل الحضر دون أهل المدر[٣].

وفيما سبق يمكننا القول بأن «الفحولة» بما تتضمَّنه من أوصاف ومعايير، هي منزلة، وليست شرطًا للاحتجاج، ولا هي مشروطة بقدم، وإنما هي مقرونة في الأساس بالفصاحة ونقاء اللغة مع الالتزام بالشرط الفني الكائن في عمود الشعر.

---

(١) الآمدي (الحسن بن بشر): الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري، دراسة وتحقيق: عبد الله حمد محارب، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط١، ١٩٩٠م، ص٣١.

(٢) القاضي الجرجاني: الوساطة بين المتنبيّ وخصومه، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، وعلي محمد البجاوي، منشورات المكتبة العصرية (د. ت)، ص٣٣، وما بعدها.

(٣) انظر الأصمعي: كتاب فحولة الشعراء، ص١٦، وابن سلام: طبقات فحول الشعراء، ١/ ١٧٢، في الاحتجاج بشعر (عبد بني الحساس، وأبي دُلامة، وأبي العطاء السِّنْدي).

خاتمـــــة

تناول هذا البحث، كما هو مدوَّنٌ في «عنوانه» دراسة معايير الفحولة في مدوَّنة الأصمعي، وقراءة الأحكام النقدية التي صدرت عنه في شأن شعرية الشعراء المتقدِّمين في الجاهلية وعصر صدر الإسلام؛ واستعرض المفاهيم والمسمَّيات المختلفة التي تتعلَّق بالفحولة، والتي تداولها النقاد في مقولاتهم وكتاباتهم النقدية، وفي إطار النسق التاريخي والثقافي والمجتمعي الذي اشتُقَّ فيه هذا المسمَّى، وتأسست معاييره، وترسَّخت في العقل النقديّ والوعي الجمعيّ. وقد انطلق الباحث من مقولات الأصمعي وأحكامه ومايتعلَّق بمعايير الفحولة من أجل استقراء الدلالات والمفاهيم المضمرة التي تنطوي عليها أحكامه، والربط بين هذه المعايير والظروف التي أنتجتها. وقد خَلُص البحث إلى النتائج الآتية:

١- أنَّ الأصمعي قد اعتمد على القياس في أحكامه التفاضلية الذوقية بين نظيرين أو أكثر في بابٍ واحدٍ، أو في زمنين مختلفين أو من خلال خصيصة فنيَّة واحدة.

٢- أنَّ ما دوَّنهُ الشعراء الفحولُ في إبداعاتهم الرائدة، وآرائهم النقدية، وما دوَّنوه من أصول الشعرية، ومقاييس الفحولة ومواصفاتها وشروطها، ومن جملة القيم والتقاليد الفنية، إنَّما يُمثِّل نموذجًا للفحولة في صورها المتعدِّدة، ومثلًا يُحتذى به عند من يأتي بعدهم، وعونًا للنُّقاد في استنباط معايير الفحولة، وشيوع الموازنات الشعرية.

٣- أنَّ الأصمعي تبنَّى أليات خاصة تنطلق من مرجعية لغوية من أهمها مقياس الفحولة الذي ترك أثرًا سلبيًا على الذوق حين اقتصر حكمُهُ على النُّخبة الشاعرة، وإنْ لم يكونوا على درجة واحدة.

٤- أنَّ الفحولة من المسمَّيات التي عانت من عدم التحديد أو استقرار المدلول، ومن ثم تباينت الأحكام التي بُنيت على أساس منه، واضطربت ولفَّها الغموض أحيانًا.

٥- أنَّ مصطلح الفحولة ظلَّ متداولًا بمسمياته وبالمعايير التي اقترنت به في كتابات النُّقاد في القرنين الثاني والثالث بما يتناسب مع شعرية المرحلة، وتوجهات النُّقاد المعياريَّة، وأن الفضل يُعزى للشعراء النُّقاد ومن بعدهم الأصمعي وابن سلام وابن طباطبا والمرزوقي في تداول مُسمَّى الفحولة ووضع المعايير التي يحتكم إليها في التمييز بين الشعراء.

قائمة المصادر والمراجع

١- الآمدي (الحسن بن بشر): الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري، دراسة وتحقيق: عبد الله حمد محارب، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط١، ١٩٩٠م.
٢- الأحوص الأنصاري: ديوانه، تحقيق وشرح: سعدي ضناوي، دار صادر، بيروت، ١٩٩٨م.
٣- إدريس مقبول: الأفق التداولي (نظرية المعنى والسياق في الممارسة التراثية العربية)، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ٢٠٠١م.
٤- أبو الأسود الدؤلي: ديوانه، صنعة: السكري، تحقيق: محمد حسن آل ياسين، دار الكتب الجديدة، بيروت، ط١، ١٩٩١م.
٥- الأصفهاني (أبو الفرج): الأغاني، شرح: علي مهنا، وسمير جابر، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ١٩٩٢م.
٦- الأصمعي: كتاب فحولة الشعراء، تحقيق: تشارلز توري، وتعليق: صلاح الدين المنجد، دار الكتاب الجديد، بيروت، لبنان، ط٢، ١٩٨٠م.
٧- امرؤ القيس بن حُجر: ديوانه، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ذخائر العرب (٢٤)، دار المعارف بمصر، ط٣، ١٩٦٩م.
٨- توفيق الزيدي: تأسيس الخطاب النقديّ، أطروحة الجمحي، عيون المقالات، الدار البيضاء، المغرب، ط١، ١٩٨٩م.
٩- الجرجاني (القاضي علي بن عبد العزيز): الوساطة بين المتنبي وخصومه، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، وعلي محمد البجاوي، منشورات المكتبة العصرية (د. ت).
١٠-جمال الدين بن الشيخ: الشعرية العربية، مقالة حول خطاب نقدي، ترجمة: مبارك حنون، ومحمد الولي، ومحمد أوراغ، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، ط١، ١٩٩٦م.
١١-ابن جني (أبو الفتح عثمان): الخصائص، تحقيق: محمد علي النجار، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، (د. ت).
١٢-جيوفري ليتش: مبادئ التداولية، ترجمة: عبد القادر قنيني، أفريقيا الشرق، المغرب، ٢٠١٣م.
١٣-حسان بن ثابت الأنصاري: ديوانه، تحقيق: سيد حنفي حسنين، دار المعارف بمصر، ١٩٨٣م.
١٤-ابن رشيق القيرواني: العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تحقيق: محمد محيى الدين عبد الحميد، دار الجيل اللبناني، بيروت، ط٥، ١٩٨١م.
١٥-سراقة البارقي: ديوانه، تحقيق وشرح: حسين نصار، لجنة التأليف والترجمة والنشر، ط١، ١٩٤٧م.

١٦-ابن سلام الجمحي: طبقات فحول الشعراء، تحقيق: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، ١٩٨٠م.
١٧-الشاهد البوشيخي: مصطلحات النقد العربي لدى الشعراء الجاهليين والإسلاميين (قضايا ونماذج)، دار نشر «القلم»، ط١، ١٩٩٣م.
١٨-ابن طباطبا العلوي: عيار الشعر، تحقيق: محمد زغلول سلام، منشأة المعارف، ١٩٧٧م.
١٩-الطرماح بن حكيم: حياته وديوانه، تحقيق: عزة حسن، وزارة الثقافة والسياحة والإرشاد القومي، مطبوعات مديرية إحياء التراث القديم، دمشق، ١٩٦٨م.
٢٠-طه أحمد إبراهيم: تاريخ النقد الأدبي عند العرب من العصر الجاهلي إلى القرن الرابع الهجري، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٩م.
٢١-عبد السلام محمد رشيد: لغة النقد العربي القديم بين المعيارية والوصفية حتى نهاية القرن السابع الهجري، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٠٨م.
٢٢-عبد السلام المسدي: قاموس اللسانيات، مع مقدمة في علم المصطلح، الدار العربية للكتاب، ١٩٨٤م.
٢٣-عبد العزيز عبد الله الخراشي: ظاهرة حديث الشعر عن الشعر من العصر الجاهلي حتى العصر الأموي، الآفاق والغايات، إصدارات جامعة الملك سعود، الرياض، ط١، ٢٠١٢م.
٢٤-عبد الله الغذامي: النقد الثقافي: قراءة في الأنساق الثقافية العربية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ٢٠٠٨م.
٢٥-عبده الراجحي: عرض كتاب «المواءمة والاتصال والمعرفة»، مجلة عالم الفكر، الكويت، عدد (٢)، ١٩٨٧م.
٢٦-عبيد بن الأبرص: ديوانه، شرح: شريف أحمد عدرة، دار الكتاب العربي، بيروت،١٩٩٤م.
٢٧-عدي بن الرقاع العاملي: ديوانه، تحقيق: نوري حمودي القيسي، وحاتم الضامن، مطبعة المجمع العلمي العراقي، ١٩٨٧م.
٢٨-علي القاسمي: مقدمة في علم المصطلح، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٨٧م.
٢٩-ابن قتيبة (عبد الله بن مسلم الدينور): الشعر والشعراء، تحقيق وشرح: أحمد محمد شاكر، دار الحديث، القاهرة، ١٩٩٦م.
٣٠-ليلى الأخيلية: ديوانها، تحقيق: خليل إبراهيم العطية، وجليل العطية، دار الجمهورية، بغداد، ط٢، ١٩٧٧م.
٣١-محمد أمين: قراءة النص التراثي (سؤال المنهج ومنطق الخطاب)، مجلة جذور، النادي الأدبي بجدة، المملكة العربية السعودية، العدد (٣٧)، يونيو، ٢٠١٤م.

٣٢-محمد زيوش: الشعرية العربية من تعالي البنية إلى انفتاح النص (قراءة في مفهوم الشعرية وتطورها في الدرس النقدي العربي التراثي)، مجلة العرب، دار اليمامة للبحث والنشر، الرياض، يونيو/ يوليو، ٢٠١٦م.
٣٣-المرزوقي (أبو علي أحمد بن محمد): مقدمة شرح ديوان الحماسة لأبي تمام، تعليق: غريد الشيخ، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ٢٠٠٣م.
٣٤-نابغة بني شيبان: ديوانه، دار الكتب المصرية، القسم الأدبي، القاهرة، ط٢، ١٩٩٥م.
٣٥-نبراس هاشم ياس: فحولة شعر الصعاليك (سلطة نص أم نص سلطة؟)، مجلة جامعة كربلاء العلمية، المجلد الثامن، العدد الثالث، أنساني، ٢٠١٠م.
٣٦-أبو النجم العجلي: ديوانه، شرح: علاء الدين أغا، النادي الأدبي، الرياض، ١٩٨١م.